عينة للقراءة

عباس خضر

مزور الذاكرة

رواية

ترجمة: هبة شريف

مزيد من المعلومات عن الكتاب تجدونه على موقع

www.hanser-literaturverlage.de

»لا ينبغي الاعتماد على الذكريات، ومع ذلك، فلا يوجد سوى ذلك الواقع الذي نحمله في ذاكرتنا.«

كلاوس مان. "في بيت أبوي".

قال أخوه الذي كان على الطرف الآخر من الخط: «تعال بأسرع ما تستطيع. لقد اقتربت ساعتها. أمنا في المستشفى. يقول الطبيب إنها لم يعد أمامها وقت طويل.»

يجلس "سعيد الوحيد" في أحد القطارات السريعة المنطلقة في مكان ما بين مدينتي ماينز وبرلين. الطقس في الخارج رمادي وغائم، إنه يوم ممطر من أيام شهر يونيو. كانت والدة "سعيد" كثيرًا ما تمرض في السنوات الماضية. تدهورت حالتها في الأسابيع الماضية. أصبحت تنام بشكل دائم, وكانت لا تستيقظ في خلال النهار إلا لبضعة دقائق قليلة فقط.

عرف "سعيد" أن الوقت قد اقترب ليظهر الموت، ذلك الضيف غير المرغوب فيه، على عتبة الباب. وقريبًا ستلتقي أمه مع أبيه وأخته. ستكون العائلة في السماء أكثر اكتمالًا منها على الأرض.

اشترك "سعيد" في ندوة عقدت في ماينز، وهو الآن في طريقه عائدًا إلى المنزل، إلى "مونيكا" وابنه "إلياس". فكر إذا ما كان عليه أن يترجل من القطار في المحطة القادمة ويصعد إلى قطار آخر متجه إلى مطار فرانكفورت. بحث من خلال هاتفه المحمول عن رحلات طيران يمكن أن يحجزها.

لم يكن أخوه ليطالبه أبدًا بالسفر إلى بغداد إذا لم تكن حالة أمهم حرجة فعلًا. لكن كيف سيصل إلى هناك بأسرع طريقة ممكنة؟ توقفت رحلات الطيران المباشر منذ وقت طويل. هل أعيد تشغيل مطار بغداد من الأساس؟ في أي حرب أغلق يا ترى؟ هل سيتمكن من رؤية أمه قبل أن تودع هذا العالم؟ هل سيتعطف الموت ويتركها حية لبضعة أيام أخرى؟ هل ينتظر قدومه؟

قد تكون أمه متعجلة للقاء باقي أفراد العائلة في العالم الآخر. لا أحد ممن بقي على قيد الحياة في عشيرتها لديه فكرة عن المكان الذي دفن فيه جثمان الأب. عثروا بالكاد على بقايا أجساد الأخت وعائلتها. في العراق: لا يدور عقرب الدقائق وفق الأرقام وإنما وفق الجراح، هذا ما يعرفه "سعيد".

لحسن الحظ كان جواز سفر "سعيد" معه. لو كان قد ركن إلى الراحة والكسل في السنوات الماضية، لتركه في البيت عندما سافر إلى ماينز.

ما زال "سعيد" شخصًا لا يثق في العالم. لا وجود في الغربة للجهات الأربعة. إنه يعرف ذلك عن تجربة شخصية. لابد أن تكون دائمًا مستعدًا لأن تفسح المجال أو لأن تخبط رأسك في الحائط. الغربة مثل سير في شارع طويل ملتوي مليء بالمنحنيات ويقود إلى الفراغ.

لن ينسى "سعيد" أبدًا ذلك اليوم من أيام الصيف الذي تلقى فيه خطابًا كتب على مظروفه «إفادة رسمية». كان في تلك الأوقات يمكث كثيرًا أمام حاسبه المحمول في شقته ذات الغرفة الواحدة في ميونيخ، ويتابع نشرات الأخبار عن الوضع في العراق. كان القتال الشرس يدور في الشوارع بين مؤيدي الديكتاتور الذي سقط وبين الجنود الأمريكان.

كان "سعيد" على دراية بالفعل بتلك الإفادات الرسمية المرعبة وكان يعرف أي خطر كبير قد يكمن داخلها. إنك لا تنسى الكوابيس أبدًا، إنك تكبتها فقط وتظل تحملها معك في كل مكان. ارتعشت يده وهو يفتح الخطاب. بأعلى الورقة اسم المرسل: المكتب الفيدرالي لشؤون الهجرة واللاجئين. أو هل كان اسمه في ذلك الوقت المكتب الفيدرالي للاعتراف باللاجئين الأجانب؟ شعر "سعيد" بقلبه وهو يدق بقوة.

كان الخطاب هو القرار الذي اتُخذ بشأن إلغاء وضعه كلاجئ. ذُكر أن السبب هو أنه لن يواجه الآن أي اضطهاد في وطنه بعد أن سقط النظام العراقي. وقالوا إنه ملزم بالعودة. أو بتعبير آخر: إنه لا مفر من أن يتعرض لركلة من أحد أفراد الشرطة تطرده خارج الحدود.

ظل "سعيد" باقي اليوم جالسًا على الأريكة، يحملق في الجدار ويدخن سيجارة بعد الأخرى. تجنب الاستحمام في ذلك اليوم. كان يعلم أنه إذا وقف أمام المرآة ونظر لنفسه في عينيه، فلن يسعه سوى أن يكيل الاتهامات لنفسه لأنه فعل هذا ولم يفعل ذاك. كان طوال حياته كثيرًا ما يوجه الصفعات لنفسه. أصيب "سعيد" في المساء بصداع رهيب. بسبب التدخين المستمر، ولكن أيضًا بسبب أنه خبط رأسه أكثر من مرة في باب حجرة المعيشة.

عرف "سعيد" في اليوم التالي أنه لم يكن الوحيد الذي استلم هذه الإفادة الرسمية. فقد تلقى كثيرون الخطاب نفسه.

قال أحد الأشخاص في مقهى البصرة في شارع "شفانتالر": «السماء تومض فوقنا باللون الأزرق! مغبرة مثل صفحة دجلة والفرات. واضحة للأعين مثل الكدمات

الزرقاء في أرواح الناس في الوطن. مؤلمة مثل الجراح التي حملناها معنا من الوطن. لكن هذا اللون الأزرق ليس حقيقيًا مثل لون عيني حبيبتي.»

قال صاحب المقهى: «لقد قرروا ترحيلنا جميعًا. كانوا قبل سنوات يرحلون أناسًا من جنسيات أخرى، من دول البلقان ومن أفغانستان. والآن حان دورنا.»

وقال آخر: « الأفارقة معرضون للطرد في أي وقت. إنهم ضيوف دائمون في مراكز الترحيل. إنها موطنهم الذي استقروا فيه.»

لم يتمكن أحد من الضحك على هذه الجملة.

بدا أن حياة "سعيد" في ألمانيا توشك على نهايتها. فقدت ست سنوات معناها بضربة واحدة. العمل. التعليم. الأصدقاء. الأحلام. الوقت الذي قضاه "سعيد" في تعلم اللغة الألمانية وملايين القواعد الاستثنائية بها. بدا كأن حياة "سعيد" لم تكن حياة، وإنما جملة زائدة عن الحاجة في ملفات الموظفين: يمكن لأي شخص أن يمحيها بحركة سريعة. كانت حياة بلا قيمة، كانت مجرد ضرطة على هامش كل العوالم.

لصاحب المقهى دائمًا رأي في أي أمر يخطر على البال، وكان يعبر عن رأيه في الهندسة الوراثية بنفس الحزم والتصميم الذي يعبر به عن رأيه في الملابس الداخلية. نصحهم بالبحث عن محامين متخصصين في إجراءات اللجوء والإقامة وإلغاء طلبات اللجوء. تحدث عن محام مشهور من أهل البلد لم يخسر قضية واحدة أبدًا.

وجد "سعيد الوحيد" عنوان مكتب "نوسباوم وشركاه" للمحاماة على شبكة الإنترنت. إلا أنه لم يهاتفهم بنفسه. تحدث في البداية مع رئيسه في شركة التنظيف التي كان يعمل بها في تلك الفترة. طلب منه أن يحجز له موعدًا في مكتب المحاماة. كان رئيسه متفهمًا وقام بتلك المكالمة الهاتفية القصيرة. شكره "سعيد" أكثر من مرة وأهداه نصف كيلو من البقلاوة.

كان الأفضل أن يقوم أهل البلد من المواطنين البيض بتسوية هذه الأمور فيما بينهم: البحث عن شقة، حجز المواعيد بجميع أنواعها. لا يجب أن يقوم شخص مثل "سعيد" بهذه الأمور الرسمية وحده أبدًا. تلك الأمور هي المنطقة الخاصة بأهل البلد. كان موظفو الخدمة المدنية والمختصون يشعرون أن عملهم يضفى عليهم شيئًا من التميز، يعطيهم شعورًا بأنهم آلهة. لم يكونوا يحبذون الحديث مع تلك المخلوقات البائسة بأنفسهم، وإنما كانوا يفضلون، إذا تحدثوا لأحدهم، أن يكون ذلك من خلال مبعوث من أهل البلد. هؤلاء الأجانب القُصّر كانوا دائمًا في حاجة إلى شخص من أهل البلد إلى جانبهم ومستعد لمساعدتهم إذا أرادوا تحقيق بعض

التقدم في مطلبهم. كانوا يحتاجون في كل هيئة حكومية، وأحيانًا أيضًا عند التسوق، إلى واحد من أهل البلد البيض ليقوم بدور جليس الأطفال لهم أو دور النبي.

اقترب سعيد من المبنى القديم الخلاب في شارع "ماكسيميليان" فانبهر بشدة. كان مكتب محاماة "نوسباوم وشركاه" يقع في الدور الثالث أو الرابع من المبنى. شعر "سعيد" وكأنه يتجول في أحد المتاحف. قادته السكرتيرة إلى إحدى الغرف وقدمت له فنجانًا من القهوة ومعه كوبًا من الماء. جاء بعد بضعة دقائق صبي لم ينبت شاربه إلا بالكاد، وجلس أمامه. قدّر "سعيد" أنه في بداية العشرينيات، لكنه لم يتمكن من تصنيفه، هل كان محاميًا، أو محاميًا تحت التمرين، أو متدربًا. قام الشاب بتصوير نسخ من كل الوثائق التي كانت مع "سعيد"، ثم عاد ليجلس أمامه وأخذ يتصفحها، ثم نهض من جديد وأحضر كتابًا ضخمًا من أحد الرفوف ووضعه على الطاولة.

ماذا كان اسمه؟ هذا ما لا يتذكره "سعيد"، كما لا يتذكر أيضًا الملابس التي كان يرتديها أو شكل الغرفة. لكنه يتذكر من ناحية أخرى أسنان الشاب. كانت بيضاء مثل الثلج ومستقيمة كأسنان المشط. لماذا هو قادر على تذكر أسنانه؟

وجّه الشاب - ذو- الأسنان-البيضاء- مثل- الثلج أسئلة كثيرة إلى "سعيد"، وأخذ يدون الإجابات في دفتر. كان الصمت يسود بين الحين والآخر لفترة طويلة يفتح فيها الشاب- ذو- الأسنان- البيضاء- مثل- الثلج الكتاب الضخم ليراجع شيئًا ما. أزاح في النهاية الوثائق والكتاب جانبًا ونظر مباشرة إلى "سعيد" في عينيه. سأل الشاب- ذو- الأسنان- البيضاء- مثل- الثلج "سعيدًا" إذا كان قد قام بأي عمل إجرامي.

«ملفي نظيف.»

«منذ متى وأنت تعمل وتدفع الضرائب منذ أن جئت إلى البلد؟ هل كنت تحصل على إعانة اجتماعية أو إعانة بطالة؟»

«في البداية، عندما كنت أقيم في سكن اللاجئين، كنت أتلقى آنذاك مصروفًا بسيطًا. إني أعمل منذ أن حصلت على تصريح بالإقامة، وأتعلم اللغة في نفس الوقت. أحضر في الوقت الحالي دورة تدريبية حتى أحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية، أنا في الفصل الدراسي الأخير، أستطيع أن أبدأ الدراسة فور ما أجتاز الامتحان. أعمل بعد الظهر عملًا بدوام جزئي، لم أحصل على أي مساعدة مالية من الدولة.»

«هذا يجعل الأمور أسهل. هل لديك حبيبة من أهل البلد؟»

«أعذرني، ماذا قلت؟»

«امرأة ألمانية يمكن أن تتزوجها، امرأة تحبها وتحبك.»

«لا.»

«متى تنتهي إقامتك؟»

«بعد أربعة أو خمسة شهور.»

أغلق الشاب - ذو - الأسنان – البيضاء – مثل - الثلج دفتر ملاحظاته.

«هذا هو الوضع: عليك أن تتقدم بشكوى. لكنك لن تكسب القضية. بالرغم من أن السبب المذكور لإلغاء طلبك ليس سببًا كافيًا، فكل مقالة في الصحف دليل على ذلك، لكنك ستخسر القضية بالرغم من ذلك ولن تُرد لك مصاريف التقاضي.»

تعلق "سعيد" بشفتي الشاب منتظرًا معلومات أكثر تحديدًا.

«لكن الأمر برمته بسيط. سوف نكسب وقتًا ثم ننفذ طلبك بطريقة مختلفة. لا يخسر مكتبنا قضية أبدًا. سوف نضمن لك أن تحصل على تصريح بالإقامة الدائمة.»

«كيف؟»

«قريبًا سيكون قد مر على وجودك في ألمانيا ست سنوات.»

«أجل.»

«هذا يعني أنك لديك الحق في تصريح بالإقامة الدائمة.»

«وكيف نفعل ذلك؟»

«هل تملك جواز سفر عراقيًا؟»

«لا.»

«إذن أنصحك أن تتقدم إلى السفارة العراقية للحصول على جواز سفر. سنحاول أن نصل هنا مع السلطات إلى حل وسط. سوف تتنازل عن طلب اللجوء، لكن في المقابل سيكون لديك الحق في أن تحصل على تصريح بالإقامة الدائمة لأنك تقيم في ألمانيا منذ سنوات وتدفع الضرائب بانتظام. سوف ننقل التصريح بالإقامة إلى جواز السفر العراقي الجديد. في هذه الحالة لن تكون طالب لجوء، ولكن ستكون مواطنًا أجنبيًا لديه تصريح بالإقامة الدائمة.»

قال "سعيد" متشككًا:

«فعلًا؟»

«لكن عليك ألا تخبر أحدًا عن جواز السفر الجديد حتى تنتهي القضية. سوف نقع في المشاكل إذا ما عرفت إدارة الهجرة شيئًا عن ذلك الأمر. فأنت الآن طالب لجوء وغير مسموح لك بالتواصل مع وطنك الأم.»

«أوكى. فلنقم بذلك.»

اتفقا على مبلغ من المال كدفعة مقدمة والباقي على أقساط.

رغم أن "سعيد الوحيد" قد أنفق كل ما إدّخره في السنوات الماضية، كما أن كل الاحتمالات تشير إلى أنه لن يسترد ماله، إلا أن ذهابه لمكتب المحاماة كان يستحق ذلك العناء. فقد اتضح أن ذلك كان أفضل قرار اتخذه من أجل حياته في ألمانيا.

استغرق الأمر بضعة أسابيع حتى حصل على جواز السفر الجديد من السفارة العراقية. بدا الجواز كأنما أصدره شخص ما باستخدام ماكينة قديمة الطراز لتصوير المستندات. قرأ "سعيد" في الإنترنت أن جواز السفر العراقي يُعد واحدًا من أسوأ جوازات السفر في العالم. لكن كان هذا الإصدار المثير للشفقة هو ما أنقذه.

استغرقت القضية عامًا كاملًا حتى تمت الموافقة على تصريح الإقامة الدائمة. كانت تلك الفترة مرهقة ومحبطة له. شعر وكأنه في مغارة ضخمة مظلمة. وكان ثمة ضوء ضعيف لا يكاد يبين يتسلل إليه من مكان ما؛ شعر أنه لن يستطيع السير في الطريق إلى مكان الضوء بدون أن يتعثر ويسقط في الفراغ.

سلّم في البداية جواز سفره الخاص باللاجئين، ثم حصل بعد ذلك على ما يطلق عليها وثيقة الإقامة المؤقتة. وكان عليه أن يمد وثيقة الإقامة كل شهرين- أو هل كان ذلك كل ثلاثة أو أربعة شهور؟ كان يعتقد في كل مرة يدخل فيها إدارة الهجرة أنهم سيعتقلونه ويرحلونه. كان "سعيد" يخشى أن يفقد مكانه في الدورة التحضيرية. فسوف يلغون تسجيله فيها إذا شموا خبرًا عن وثيقة الإقامة، كما أنه فقد وظيفته في شركة التنظيف لأن تصريح العمل لم يعد ساريًا منذ أن تغير وضعه وأوقف ترحيله مؤقتًا.

قال الموظف المختص في مكتب العمل:

«لا يحق لمن أوقف ترحيلهم مؤقتًا الحصول على تصريح بالعمل.»

«لكن يمكنني الاحتفاظ بتصريح العمل حتى انتهاء القضية. أليس هذا ممكنًا.»

«لا.»

وضعوا في طريق "سعيد الوحيد" في ذلك العام العديد من الأحجار، ولكن لم يكن ذلك كل شيء، فقد وضعوا في طريقه أيضًا أكوامًا ضخمة من المواد القانونية، فلم يتمكن من التقدم حتى خطوة واحدة إلى الأمام.